اسم ولقب الباحثة: أحلام مرغادي **الرتبة:** طالبة دكتوراه، تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر، سنة: خامسة

مؤسسة الانتماء: جامعة مولود معمري ـ تيزي وزو ـ **الإيميل المهني:** ahlem.merghadi@ummto.dz

الملتقى الوطني: الأمير عبد الجزائري والانفتاح الفكري والأدبي **عنوان المداخلة:** سيرة الأمير بين الواقعية والمتخيل

الملخص:

لطالما كانت سيرة القادة والعظماء تيمات للعديد من الأعمال الروائية الخالدة، وأبطالها شخصيات تتأرجح بين الواقعية والتخييل؛ واقعية تفرضها المصداقية في نقل حياة البطل كما هي للقارئ المفترض، وتخييل تنسجه عبقرية المبدع وما يحاك من قصص وروايات ينتجها المخيال الشعبي.

وتعتبر شخصية الأمير عبد القادر الجزائري وسيرته الخالدة أبرز المحكيات التي تناولتها مختلف الكتابات السردية خاصة الرواية. وسنحاول في هذه المداخلة المعنونة بـ" **سيرة الأمير .. بين الواقعية والمتخيل**" أن نقارب بعض النماذج الروائية التي جعلت من محطات حياة الأمير خيوط تنسج من خلالها حكايات تتأرجح بين الحقيقة والخيال. متساءلين أي من الحكايتين قربت شخصية الأمير إلى ذهنية القارئ المعاصر وانطبعت في مخيلته.

Summary :

It has always been the biographies of leaders and great people themes for many immortal works of fiction. Its heroes are characters that oscillate between reality and imagination ; Realism imposed by credibility in conveying the hero´s life as it is to the supposed reader, An imagination woven by the genius of the creator and the woven stories and novels produced by the popular imagination.

The personality of Prince Abdelkader Al – Jazairi and his biography are considered immortal the most prominent stories covered in various narrative writings, especially the novel. In this intervention entitled **«The Biography of the Prince between Realism and Imagination»** we will try to approach some of the fictional models that made the Prince´stations threads through which to weave stories that oscillate between truth and imagination. We wonder which of the two stories brings the prince´s character closer to the contemporary reader´s imagination and is imprinted in his imagination.

مقدمة:

لطالما كانت سير القادة والعظماء تيمات للعديد من الأعمال الروائية الخالدة، وأبطالها شخصيات تتأرجح بين الواقعية والتخييل؛ واقعيةٌ تفرضها المصداقية في نقل حياة البطل كما هي للقارئ المفترض، الذي ينتظر أنّ يقرأ هؤلاء الأبطال وأفعالهم حقيقة كما حدثت في الواقع، وأرخ لها التاريخ. وتخييل تفرضه العملية الإبداعية وهي تَحيك قصص وأحداث سير هؤلاء من وحي خيال المبدع وما ينتجه المخيال الشعبي.

وتعتبر شخصية الأمير عبد القادر الجزائري وسيرته أبرز المحكيات التي تناولتها مختلف الكتابات السردية خاصة الرواية. وفي هذه المداخلة الموسومة بـ" **سيرة الأمير بين الواقعية والمتخيل**" سنقارب نماذج روائية تناولت محطات من حياة الأمير برؤى مختلفة، وركزت على جوانب أهملها التاريخ أو تجاوزها، متخذة من أدوات الرواية مبررات لاستنطاق المسكوت عنه في سيرة هذا البطل، متساءلين عن الكيفية التي وظف بها هؤلاء الروائيون سيرة الأمير عبد القادر، ومدى قدرتهم على تجسيد حياته بما يملكون من إبداع وأدوات تخييلية. بعيدا عن التقريرية والإخبارية التي طبعت الكثير من الأعمال الروائية السابقة؟.

1. سيرة الأمير عبد القادر الجزائري:

الأمير عبد القادر بن محي الدين الملقب بـ **عبد القادر الجزائري** هو كاتب وشاعر، متصوف وفيلسوف، سياسي ومحارب، مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، ورمز للمقاومة الشعبية ضد الوجود الاستعماري، وقائد الجيش الجزائري أثناء غزو فرنسا للجزائر، كانت حياته ما بين الكتب وميادين الجهاد، وبين حلقات العلم والتدريس ومواقع السيوف والرماح.

جاهد وحرض شعبه على مقاومة الاستعمار ونيل الحرية حتى وقوعه أسيراً و توقيعه معاهدة **لاموريسيير** أو معاهدة الاستسلام مع العدو (**23 ديسمبر 1847م**) ، ليُنفى بعدها إلى باريس ثم إلى دمشق، التي توفي فيها يوم **26 مايو 1883م**. ولقد تناولت العديد من الأعمال الروائية سيرته منذ (**1830 حتى 1883**)، أو محطات هامة منها؛ بأسلوب المؤرخ و تخيل الروائي، كلٌّ وَجَدَ في حياة الأمير الشخصية وسيرته الذاتية ما يمكن تحويله لعمل روائي، ومن بين هذه الأعمال الإبداعية اخترنا نموذج لروائيين جزائريين، أعادوا إحياء سيرة الأمير في كتابة سردية تروم الانطلاق من التاريخ وتشرع أبواب التخييل، قصد العودة بالقارئ إلى الماضي ومعايشته تلك السير كما حدثت فعلاً، مطعمة بما جادت به لغة الروائي وهو يحاول ملئ فجوات صنعها الزمن. ليبني عالمه المتخيل على أنقاض وبقايا ما روته كتب التاريخ، وما سارت به ركبان القوالة وصانعوا الحكايات الشعبية.

الأعمال المختارة اتخذت من سيرة الأمير ومواقفه التي حفظتها كتب التاريخ مادة لبناء سردي، ليس سيرة غيرية تعيد التاريخ كما هو وتوثقه، وإنما اختار كتابها كتابة سردية تخييلية، تتيح لهم مساحة من الحرية الأدبية في كتابة القصة كما يشاءون هم، ومن أي نقطة يرغبون الانطلاق منها في نسج خيوط الحكاية. وسنبدأ على التوالي في مقاربة هذه الأعمال تبعاً لبنائها السردي والتاريخي.

1.1. ثائر من الجزائر: الأمير المجاهد

العمل الأول الذي قَدَمَ صورا من حياة الأمير في مرحلة حرجة هي ذروة الاصطدام المباشر بينه وبين قوات الاحتلال الغاشم. رواية للكاتب **عبد القادر قسيمة** بعنوان "**ثائر من الجزائر**" في طبعتها الأولى عن دار النفائس بلبنان لسنة 2015.

يسرد المؤلف انطلاقا من عتبة العنوان بطريقة حوارية جذابة مرحلة واقعية من تاريخ الجزائر، تجعل القارئ يعيش مع شخصيات الرواية، أبطال ثورة الجزائر، التي امتدت عشرات السنوات، والتي كان عبد القادر الجزائري مُوْقِدَّها ومُحَرِّكها، وشَكَّل منارة لمن عاصره، ولمن اتبعه وسار على نهجه، حتى حققت الجزائر استقلالها.

استهل الكاتب روايته بمقدمة كانت بقلمه تحدث فيها عن الاحتلال الفرنسي للجزائر، وعن الأيقونات التي سطرت بدمائها ثورة شعب لا يقهر من بينهم شخصية الأمير عبد القادر، الذي كان انموذجا للتضحية والبذل، وسيرته المشرفة والعطرة ونسبه الشريف. لذا كانت هذه الرواية تكريمًا له ولتضحياته[1].

كما صَدَّر لكتابه بمقبوسات؛ المقبوس الأول هو مقطع من قصيدة "أيا عبد القادر كنت القديرا" للشاعر مفدي زكريا. أما الثاني وضع له عنوان (وقائع) وهي أقوال مقتبسة من آثار الأستاذ أحمد توفيق المدني: "هذه الجزائر". وفيها تأريخ لجرائم فرنسا في حق الشعب الجزائري الأعزل واعترافات مؤرخين وجنرالات فرنسا في ذلك الوقت[2].

لقد استلهم الكاتب من سيرة الأمير محطات هامة؛ تراوحت بين الحياة الشخصية و الثورية والعقدية. كما كانت لشخصية الأمير الفكرية نصيب من التخليد في هذا العمل الروائي. وحتى لا يكون الكاتب كالمؤرخ يعيد تكرار الأحداث الماضية كما هي وضعها في قالب سردي عندما وظف تقنية الحوار ليكون للجانب الروائي وظيفته في كسر رتابة ونمطية التاريخ. كذلك وظف الكاتب تقنية الاستبقاء والاسترجاع وجعلها تتخلل تلك الحوارات التي اعتمدها في سرد سيرة الأمير.

---

[1] ينظر: عبد القادر قسيمة، ثائر من الجزائر، ط1، 1436هـ 2015م، دار النفائس لطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، ص5.

[2] ينظر: الرواية، ص5. 6. 7. 8. 9. 10.

أ. مقتطفات من حياة الأمير الشخصية والفكرية:

قسم الكاتب روايته إلى ثلاثة أقسام؛ بدأ في القسم الأول بالسنوات الأخيرة للأمير (سنة **1883**م) بدمشق وهو يواصل تقديم رسالته التعليمية رغم تقدمه في السن وظهور علامات المرض والكبر عليه[3]. ليعود بالقارئ إلى الوراء حين يستذكر الأمير بعضًا من ذكرياته، وهنا تبدأ فصول الحكاية ومحطات رحلة البطل.

كانت أُوْلى الذكريات رحلته للحج مع والده سنة **1825**م، ليتدخل الكاتب ويسرد شيء عن مناقب الأمير ووالده، وشرف نسبه[4]. ويتخلل هذا السرد رسومات تجسد رحلة الحج. معرجًا على أحوال الجزائر وأهلها آنذاك تحت ضيم الاستعمار وظلمه. ليواصل سرد رحلة الأمير ووالده، التي زارا فيها بعض الأمصار كدار السلام بغداد والقاهرة. وكذا تحصيله العلمي الذي أهله بعد ذلك للجلوس في حلقات العلم والتدريس، هذا ما يجعلنا نربط بين بداية الرواية التي جعل الكاتب الانطلاق منها يكون بالحديث عن علم الأمير ومعرفته، قبل الحديث عن سيفه ومقاومته، في إشارة منه إلى أن المعرفة والحكمة هما زاد المجاهد والمحارب لا القوة والبطش، وهذا ما عُرِفَ عن الأمير وانسانيته ومحبته للآخر انطلاقا من توهج فكره واتِّقاد قريحته وتوسع علمه ومعرفته[5].

وقد كان لحضور الوطن في جميع رحلات الأمير نصيب الأسد، فهي مهجة روحه، ودليل طريقه، فوالده يوصيه بوطنه خيرًا قائلا له:"(...) يا بني.. اللأم كالوطن، عندما تكون فيها ومعها تنعم بوجودها، وعندما تبعد عنها أو تفتقدها تصيبك الحسرة وتبقى في وجدانك تُحيي أواصر الشوق إليها...أوصيك يا بني، فالجزائر والدتك

---

[3] ينظر: الرواية، ص12.

[4] ينظر: الرواية، من ص13. إلى غاية ص28.

[5] ينظر: الرواية، ص29.

الكبرى، صُنها وارفع قدرها بما أوتيت من قوة، ولا تدَّخر جهدًا للدفاع عنها إن عظم البلاء فيها أو ممن أراد أن يستعبد أهلها."[6]

ينهي الكاتب القسم الأول من الرواية برحلة عودة الأمير ووالده للوطن، ومرورهم على مدينة دمشق، وقصَّ الوالد رؤيا رآها وهو يؤدي مناسك الحج على أحد علماء دمشق، ليكون تأويلها أن ذريته سيكون لها نصيب من الفلاح والرفعة، وستكون دمشق مباركة بنسل الشيخ ذات يوم.[7]

ب . الأمير المحارب:

ينقلنا قسيمة في القسم الثاني من الرواية إلى سيرة الأمير الحربية؛ فرحلة عودته من الحج تزامنت ودخول الاستعمار الفرنسي للجزائر بعد معركة **نافرين سنة 1927م**، وانهزام الأسطول الجزائري فيها. ليبدأ النضال ضد هجمات المستعمر ورغباته التوسعية[8]. وفي الشدائد يظهر الرجال، فقد برزت شجاعة الأمير وظهرت سمات القائد فيه وهو لا يزال شابًا. من خلال جمعه للقبائل المتفرقة وتوحيدها من أجل مواجهة الاحتلال في منطقة **سهل غريس**. وبَدْء مواجته للعدو في معارك عديدة. فحقق انتصارات عظيمة، وهو ينشد الشعر الحماسي الذي يؤرخ لهذه المرحلة[9].

ومع بروز شخصية الأمير الحربية وتقدم سن والده شيخ القبيلة، تمت مبايعة عبد القادر أميرًا بعد تنازل والده عن الإمارة. ليُفَصَّلَ الكاتب في هذه الحادثة ويبين مدى أهلية عبد القادر الشاب لتولي زعامة المقاومة ضد

---

[6] الرواية، ص30.

[7] ينظر: الرواية، ص39.

[8] ينظر: الرواية، ص 47.

[9] ينظر: الرواية، ص64.

الاستعمار، فالأمر لم يكن توريثًا وإنما عن جدارة و استحقاق[10]. ومع هذا الانتقال في حياة الأمير الشخصية بدأت مرحلة الكفاح المخطط والمنظم بعد أن كانت المقاومة مشتت. فغايته لم تكن النصر على العدو والحاق الخسائر به فقط، وإنما إيقاف حركة المستعمر وتوسُّع حدوده، وذلك بإحكام السيطرة على جميع المنافذ الحيوية وإضعاف قدرته، وبناء جيش قوي ومنظم[11]، والسعي لبناء دولة قوية ومنظمة لها كيان مستقل، وحالة اقتصادية واجتماعية جيدة. يريد دولة بالمفهوم الحديث. تضاهي دولة المستعمر وتكون له الندَّ بالندِّ، ليختار الأمير مدينة معسكر عاصمة لدولته الجديدة[12].

يواصل الكاتب ذكر بسالة وشجاعة البطل الثائر، والقائد المنحك. الذي لم يترك فرصة تتاح له إلا ونال من المستعمر وأضعف شوكته. ولأنّ ما يُضْعف ويُوهِن قوة الجماعة هي الخيانة والدسائس، تَعَرَضَ الأمير وجيشه لخسارات كبيرة كانت ستقضي على كل ما ينتمي لهذا الوطن، ليقرر توقيع معاهدة استسلام مع **الجنرال لامورسير** حقنًا لدماء شعبه وحماية لهم من بطش المحتل. و كعقاب له ولمن بقي من جيشه غادر الأمير أرض وطنه باتجاه فرنسا التي لم يكن يعلم أنها ستكون منفاه الأول وسجنه. مخلفًا حزنًا عميقًا لدى أهالي المحروسة صغيرها وكبيرها، وهم يودعون خيرة الأبطال ومُذل الأعداء[13]. ليقع رهين السجن هو وأهله وعشيرته.

---

[10] ينظر: الرواية، ص70.

[11] ينظر: الرواية، ص77.

[12] ينظر: الرواية، ص95، 96.

[13] ينظر: الرواية، ص149.

ج ـ الحوار والتعايش: السيرة الإنسانية والفكرية للأمير:

لقد جاءت الرواية زاخرة بعديد المواقف الإنسانية والفكرية للأمير عبد القادر في الأقسام السابقة، إلاّ أنّ الروائي أفرد قسم للحديث عنها. كتأكيد على هذين البعدين في تكوين شخصية الأمير البطل الثائر. والتي ستظهر بصورة واضحة أثناء أَسْرِ الأمير وأسرته داخل سجون فرنسا. وأثناء مقام الأمير في ذلك السجن، كان برلمان فرنسا يموج هرجًا، فلقد انقسم أعضاءه بين مؤيد لسجنه ومعارض. غير أنّ ظلم ذوي القربى والدين هو ما أوجع قلب الأمير بعد أن رفض الباشا محمد علي استقباله وأهله في أرض الكنانة. لتطول بذلك مدة السجن في باريس.

وأثناء مقام الأمير في سجنه يسرد لنا الكاتب مدى شجاعته ورباطة جأشه، فلقد أظهر عظيم تسامحه مع كل من تعاطف معه وآمن بقضيته من الفرنسيين وغيرهم، كما أنّه استغل خلوته وانقطاعه" بتدريس عائلته علوم الدين والفلسفة والتوحيد... كما التحق به بعض قدماء جيش إفريقيا والأسرى لخدمته ورعايته، وازدادت شعبيته في فرنسا دون مغادرة القصر الذي آثر البقاء فيه إلى أن يفي سجّانوه بالعهد."[14]

ولقد مثل الروائي لتسامح الأمير وإيمانه بالتعدد والاختلاف مع الآخر خاصة في الدين، ودعوته للمحبة والخير بين بني البشر بلا تفرقة بحوار دار بينه وبين أحد الراهبات يقول فيه:" (...) ما أدَرِّسه وأُذَكِّر به الآن أهلي وخاصتي ليس فقط موجود في ديننا، فأنت تؤدينه معنا بكل محبة رفقة الراهبات والأب رابيون"[15]. كما ربطت الأمير علاقة طيبة مع أسقف باريس الأب دوبوش الذي أبدى ورغبته الكبيرة في زيارة الأمير رفقة تلامذته من المعهد اللاهوتي.

[14] الرواية، ص161.

[15] الرواية، ص 165.

لقد صنع الأمير بشخصيته المتفردة مكانة لدى الوسط الفرنسي بضباطه وساساته ورجال دولته ، فاهو حاكم فرنسا **لويس نابليون الثالث** يحاور الأمير وهو متأثرٌ كثيرًا بشخصيته المثقفة والمنفتحة والشجاعة بقوله:" (...) لا أخفي أني معجب بشخصك، وقد فتحت يا عبد القادر خطابًا لم نكن نعرفه بين الأديان"[16]. وكانت نتيجة هذا أن أذعن البرلمان الفرنسي لقرار فك أسر الأمير عبد القادر وأهله. وسفرهم إلى مكانٍ يدين بالإسلام كما رغب هو في ذلك. فكانت الوجهة إلى عاصمة الدولة العثمانية اسطنبول[17]. ليغادر بعدها إلى آخر محطات رحلته والتي سيكون فيها مستقره ومماته، إلى دمشق وتتحقق بذلك نبوءة والده التي رآها في رحلة الحج رفقته وهو شاب.

وفي دمشق برز شخص الأمير أكثر، فالتف الناس حوله، فلقد أصبح بطلاً قوميًا وهو ما أخاف السلطات الفرنسية والعثمانية على حدٍّ سواء[18]. ما جعلهم يشددون مراقبته وتتبع حركاته. فلقد جمع مابين الفلسفة والتاريخ، والحضارات والأديان. ونادى بخطاب التعايش جمعًا لشمل الإنسانية ضد كل ظلم وعدوان. ولعلّ ما قام به من إخماد نار الفتنة التي اشتعلت بين لبنان والشام، وبين المسيحيين والدوروز ، وحماية دمشق من القصف الذي عزمت فرنسا أن تقوم به خير دليلٍ على ذلك. ما جعل الناس تجله أكثر " وانحنت ملوك العالم وقياصرتها لموقف الأمير في الإقدام على حماية مسيحي المشرق وتأمين الأمان لهم، فتقاطرت البرقيات والنياشين والأوسمة التي لم يُعِر لها الأمير أي اهتمام."[19]

---

[16] الرواية، 167.

[17] ينظر: الرواية، ص169.

[18] ينظر: الرواية، ص173.

[19] الرواية، ص187.

ليختم الكاتب روايته بحديثه عن اشتعال المقاومة في الجزائر مقتدية بالمناضل والمجاهد والثائر الأول الأمير عبد القادر[20]. وبعودة الكاتب إلى ما بدء به روايته وهو يصور لنا اللحظات الأخيرة في حياة الأمير. ووفاته داخل مكتبته و فوق كتبه، ولسانه يلهث بالدعاء لوطنه الحبيب بالحرية.

الرواية رغم غلبة الطابع التوثيقي فيها، إلا أنّها جسدت شخصية أول بطل ومقاوم عرفته الجزائر ، لا برصد إنجازاته الحربية وشجاعته وبسالته فحسب، بل حاولت تقديم صورة الأمير في بروازها وهي مكتملة المعالم؛ فهو إنسان، مثقف وحكيم، متفتح، زار أمصارًا كثيرة كانت قبلة العلم والعلماء من مختلف أنحاء المعمورة، وكان أكثرهم من العالم الآخر الذي تنتمي إليه فرنسا الاستعمارية وتتشدق أمام الملأ بتقدمها العلمي والثقافي.

حملت الرواية بعد تربوي وتعليمي، فالظاهر أن أسلوب الكاتب في عمله هذا كانت يستهدف الناشئة بصفة خاصة، وما الرسوم المرفقة والموضحة لبعض مقاطع الرواية، واللغة البسيطة والسهلة التي كتب بها، خير دليل على ذلك.

جاءت رواية "**ثائر من الجزائر**" تأريخًا لمحطات من حياة الأمير، فمعظم شخصيّاتها حقيقيّة، وكذلك المناطق الواردة أسماؤها فيها. وقد كُتبت بالطريقة التي تُلفظ بها تلك المناطق بإطار فنيٍّ يضفي على الحوار جاذبيَّة متميَّزة، ويعطي الرواية نكهة جمالية، قد لا نجدها في مثيلاتها من الروايات التاريخية.[21].

[20] ينظر: الرواية، ص191.

[21] ينظر: الرواية، ص5.

2.1. جدلية الأنا والآخر في كتاب الأمير:

ثاني الأعمال الروائية التي قاربناها في هذه الورقة العلمية هي رواية "**كتاب الأمير(مسالك أبواب الحديد)**" **لواسيني الأعرج**، بداية يرى العديد من النقاد أن هذا العمل هو أول رواية تتناول حياة الأمير بعيدا عن التاريخانية المفرطة فهي" لا تقول التاريخ لأنه ليس هاجسها، لا تتقصى الأحداث والوقائع لاختبارها، فليس ذلك من مهامها الأساسية، تستند فقط على المادة التاريخية، وتدفع بها إلى قول ما لا يستطيع التاريخ قوله. تستمع إلى أنين الناس وأفراحهم وانكساراتهم، إلى وقع خطى مونسينيور ديبوش قس الجزائر الكبير، وهو يركض باستماتة بين غرفة الشعب بباريس وبيته للدفاع عن الأمير السجين بأمبواز، رواية الأمير درس في حوار الحضارات ومحاورة كبيرة بين المسيحية والإسلام"[22].

رواية الأمير إذا قراءة مختلفة لتاريخ مقاومة الأمير عبد القادر، تسلط الضوء على شخصيته والتأكيد على دلالتها الإنسانية، وإعادة كتابتها فنيا، وذلك بمقدار ما شكلت في مخيلة الكاتب الأدبية بمخزون ذاكرتها ولغتها وأحلامها، ونص آخر تختلف روايته للتاريخ واستعادته للمعنى والرؤية عن الرواية الرسمية، وكأنه نمط ثقافي مختلف عن الذي تقدمه الثقافة الرسمية والمدونة. تتعالى هذه الرواية عن النمط السائد في ما يكتب من روايات تاريخية؛ فليس الهدف ـ كما يقول الناشر ـ إعادة كتابة تاريخ كتب من قبل، وإنما امتطاء جواده والركض به نحو أوسع أفق يمكن الوصول إليه، بواسطة تقنية التجريب التي يخوضها واسيني منذ رواياته الأولى؛ فالتاريخ بكل مكوناته: شخوص وأماكن وأزمان وأحداث طَوْعُ لغته وتقنياته وطريقة سرده.

---

[22] عبد الوهاب بوشليحة، الكولونيالية واستراتيجية التجاوز(تجربة واسيني الأعرج)، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، دورية أكاديمية متخصصة محكمة تعنى بالدراسات الإسلامية والإنسانية، رمضان 1429/ سبتمبر 2008، ع26، قسنطينة، الجزائر، ص275.

أ . مضمون كتاب الأمير:

كتاب الأمير هو قصة يرويها جون موبي تلميذ وتابع القس ديبوش(قس الجزائر أثناء تواجد الأمير) ، يسرد فيها ذاكرة المدينة (الجزائر)، ومعها ذاكرة الأمير والقس. يسترجع من خلالها علاقة هاتان الشخصيتان ببعضهما البعض، ويعرض رؤى كل منهما. ومدى تأثر الواحد بالآخر.

كتب واسيني روايتة بلسان الآخر/ العدو ، وقد ركز على مرحلة أسر الأمير وسجنه في باريس مع عائلته، وحيثيات المرحلة، والسعي من أجل إخراجه من السجن، وما يتخلل هذا الموضوع الكبير من حوادث وقصص، منها ماهو مفصلي، كعام الجراد الذي حل بالبلاد وأهلك العباد، ورؤيا مبايعة الأمير التي رآها والده في منامه وحيثياتها، والمعارك التي قادها الأمير ضد الجيش الفرنسي حتى لحظة استسلامه في معركته الأخيرة. و الأيام الأخيرة له قبل استسلامه.

كما قدم الكاتب في روايته شهادات حقيقية من شخصيات فرنسية مرموقة ومعروفة عن شخصية الأمير أثناء تعاملهم المباشر معه؛ كوثيقة الأب سوشي الذي أرسلته السلطات مبعوثًا لمحاورة الأمير في قضية السجناء الفرنسيين. ورسائل قس الجزائر مونسينيور ديبوش الذي ستقوم أحداث القصة على علاقته الشخصية بالأمير. سواء أثناء تواجده بالجزائر، أو فترة نفي الأمير منها.

ب . الجانب الإنساني في شخصية الأمير:

ركز الكاتب في رواية الأمير على محطات معينة في حياته، ولنقل على مواقف معينة عُرِف بها الأمير انعكست في تعاملاته الشخصية والسياسية خاصة مع الآخر. فلقد عُرِفَ من خلال مذكراته الخاصة وما كُتِبَ عنه من طرف أصدقاءه وأعدائه كذلك أنّه كان شخصية إنسانية فهو" لم يرفع سيف الجهاد ليُحطم، ولكن ليبني"[23]. هكذا كان الأمير كما يصوره الكاتب قويّاً يعتز بإسلامه وفي نفس الوقت يُكْبِر الآخر كائناً من كان.

وكانت مواقفه أكبر برهان، كتدخله لإخماد الفتنة التي ظهرت في بلاد الشام سنة م1860 إيماناً منه "بالتسامح وتساميه وحرصه على المصلحة العام للمسلمين، فخطبه الكثيرة كلها كانت تدور حول فكرة التسامح التي يمثلها الدين الإسلامي والذي يدعو للتعايش والتآخي بين جميع بن الإنسان"[24]. ولقد مثل واسيني لهذه الخصلة بأشد المراحل صعوبة في حياة الأمير أثناء سجنه وعائلته في أحد القلاع عند نفيه إلى فرنسا.

وحتى يمثل الكاتب لحيثيات الجانب الإنساني في شخصية الأمير، استدعى شخصية أخرى في عمله تقارب شخصية الأمير عبد القادر، وهي" شخصية دينية مسيحية فرنسية ممثلة في الأسقف أنطوان أدولف ديبوش" جعل منها الروائي شخصية ركيزة في عمله الإبداعي، وكانت أبرز "الشخوص الفاعلة في الرواية وذات المواقف الإنسانية اللافتة"[25]. فمن هذه الشخصية وكيف صورها واسيني؟.

صور الكاتب شخصية الأسقف ديبوش بما تحمله من قيم التسامح والبذل والتضحية، ففي هذا المقطع تسرد لنا أحد شخصيات الرواية عن الأسقف:" ارتبط بهذه الأرض فدافع عنها باستماتة ودافع عن رجلها الكبير،

---

[23] أبو القاسم سعدالله، منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، ليبيا/تونس، ط2، 1988، ص78.

[24] المرجع السابق، ص78.

[25] ينظر: محمد فتحي، تجليات القيم الإنسانية لدى الأمير عبد القادر في رواية واسيني الأعرج كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، المجلد3، العدد،ص88.

الأمير، مثل الذي يدافع عن كتاب مقدّس. استمات في الدفاع عنه حتى جعل حياته كلّها رهن إطلاق سراحه. البارحة قضيت الليلة بكاملها أفلي كلماته الأخيرة التي كنت أظن عبثًا أنّي أعرفها عن ظهر قلب، لأفهم عميقًا سر هذا الحب. الأمير كان وسيلته للوصول إلى المحبة العليا"[26]. لقد كان يرى أي القس ديبوش أن الحق أحيانا فوق الأديان، لذا دافع عن الأمير لأنه مظلوم وصاحب حق، ولماذا القس بالذات لأنه رجل دين وهكذا تعلم من الكنيسة أن يدافع عن المظلومين وعن الضعفاء، فـ"الرجل الحقّ هو الذي يجعل من الحقّ ضالته. مونسينيور لم يفعل أكثر من ذلك طوال حياته، وكان يظنّ نفسه دائمًا مقصرًا في حقّ الذين يطلبون عطفه وحنانه"[27].

وحتى يقرب الكاتب للقارئ هذه الشخصية ويكون أثرها بالغًا في نفسيتة وذهنيته في صورة الآخر السوي المنصف، عمد واسيني إلى تسليط" الضوء على جانب مشرق ومضيء تمثّل في العلاقة السامية التي جمعت الأمير عبد القادر بمونسنيور أنطوان ديبوش"[28]. رغبة منه في رسم صورة الأنا وعلاقته بالآخر. فمثلاً كانت الرسائل التي تركها الأسقف شهادة منه على اختلاف شخصية الأمير عن كل من عرفهم من السجناء في سجن باريس، فهاهو في أحد رسائله يتحدث عن شخصية الأمير التي عرفها هو وعايشها لا الصورة التي رسمها له غيره من الفرنسيين" أعود للتو من قصر أمبواز، قضيت أيامًا عديدة تحت سقفه المضياف، في حميميّة نادرة مع ألمع سجين عرفه القصر أعتقد أنّني أكثر معرفة من غيري بعبد القادر وأستطيع اليوم أن أشهد بالحقّ من يكون هذا الرجل. للأسف، أثناء عودتي إلى بوردو، صادفت أناسا كثيرين أهلاً لكل ثقة، لديهم فكرة غير دقيقة وناقصة عن هذا الرجل مما سيتسبب حتمًا في تأخير تجلي الحقيقة إلى يوم غير معلوم. وأظن صادقًا لو أنَّ كل الفرنسيين

---

[26] واسيني الأعرج، كتاب الأمير(مسالك ابواب الحديد)، ط2، 2008م، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، ص14.

[27] الرواية، ص14 . 15.

[28] فاطمة قسول، سلطة التاريخي ولعبة المتخيل في كتاب الأمير مسالك ابواب الحديد ، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، م3، ع6، الجزائر، سبتمبر2015،ص83.

عرفوا عبد القادر مثلما أعرفه اليوم، لأنصفوه في أقرب وقت. لهذا أتصور أنّه من واجبي الإنساني أن أفعل شيئًا في انتظار القيام بما هو أهم..."[29].

يُعَرّجُ الكاتب في مواضع أخرى من الرواية على تصوير علاقة الرجلين، بالتركيز على ملابسات محاكمة الأمير، و سعي الأسقف ديبوش في مجلس النواب بفرنسا "أن يقنع المجلس بفتح ملف سلطان الجزائر عبد القادر"[30]. سعياً حثيثاً لا كلل فيه، فهاهو يقول :" (...) كم أتمنى أن يمنحني الله قليلاً من العمر لأرى الأمير خارج أسوار سجنه."[31]

ورغم أن العلاقة بين الشخصيتين بدأت في إطارها السياسي" كتبديل للأسرى، ثمّ تحولت في المعتقل إلى علاقة أخرى ليست صداقة بالمفهوم المعروف وإنما احترام متبادل لرأي الآخر، والشعور بالمسؤولية أيضا اتجاه قضايا الآخر"[32]. يرى الكاتب أن المواقف السياسية المتصادمة قد تقرب بين العدوين متى كانا كشخصية الأمير والقس.

لقد كان القس يقوم بزيارة الأمير في سجنه ويقضي معه وقتاً طويلاً يتحادثان ويتناقشان في مواضيع مختلفة؛ عن الوجود والإنسان والحق والعدل، وغيرها كثير. لتحفظ أرض الجزائر في ذاكرتها صورة هذان الرجلان:" ذاكرة هذه الأرض ستحتفظ ولمدة طويلة وجه هذا الرجل الطيب. فقد كان هو والأمير وجهين لعملة واحدة. انتهيا نحو المنافي والعزلة. مونسينيور عاد إلى الأرض التي أحبَّها وأتمنَّى أن يجد الأمير يومًا مكانًا له على هذه الأرض التي

---

[29] الرواية، ص21.

[30] الرواية، ص30.

[31] الرواية، ص41.

[32] بقبق الزهرة، الامير عبد القادر في الاسر1848 .1852، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، دط، 2018،ص128.

أعطته من تربيتها وأعطاها من لحمه"[33]. وهذا ما كان في آخر الرواية فقد عاد القس إلى الأرض التي أحبها ونُثرت رفاته على وجه بحرها. وتأخرة عودة الأمير التي بقيت أمنية مؤجلة.

ج. الانفتاح على الآخر وحوار الحضارات:

لقد وَلّدَ هذا السلوك وهو التعايش مع الآخر رابطة قوية بين الأمير والقسّ ديبوش كما ذكرنا سابقًا، وحواراتهم التي قامت عليها رواية واسيني تظهر رؤية كلٍّ منها للآخر واحترام معتقده ومسلكه، فالأمير في أحد حواراته مع القسّ يخبره أنّ الإيمان مستقر في القلب، وهذا لا يعلمه إلا الله، ليفتح قلبه له ويستمع بكل حب وتسامح لأسئلته[34].

كتاب الأمير هو من الروايات المابعد كولونيالية، تَكْتُب فيها الأنا المستعمَرة وعلاقتها بالآخر المستعمِر ولكن هذه المرة بلسانه هو، الذي جعله الكاتب شاهدًا على مدى إنسانية وانفتاح رموزه وعظمائه. وما الأمير عبد القادر بحمولته ورمزيته، وما يمثله داخل كل جزائري وعربي من فخرٍ واعتزاز، إلا نموذج لقائد وإنسان عظيم، كان الجانب الإنساني فيه لا يقل قيمة عن باقي جوانب سيرته وحياته الخاصة. وانفتاحه على الآخر المتمثل في القس ديبوش الذي كان يمثل في بداية الأمر سلطة العدو الدينية، باعتباره أحد رجالاته المكلفين بتطبيق نظامه. ليصل فيما بعد إلى قناعة أن شخصية الأمير تشبه شخصيته؛ فكلاهما رجل دين، يسعى كل منهما لتحقيق العدالة نصرة المظلومين والمضطهدين، ذاقا معًا مرارة النفي والابتعاد عن أرض الوطن. يختلفان في رؤية الأمور وتقديرها ويجتمعان في غاية واحدة.

---

[33] الرواية، ص487.

[34] ينظر: الرواية، ص49.

خاتمة:

تُعَدُّ هذه الأعمال الروائية سرديات تستحضر شخصيات تاريخية كشخصية الأمير عبد القادر وتمثيلها بكل حيثيات سيرتها الشخصية والتاريخية، وهو ما يحتاج القارئ العربي المعاصر، وما ينتظره من خلال متون الإبداع السردي.

كل رواية من هذه الروايات قاربت شخصية الأمير حسب رؤيتها، وأسقطت عليها من أدواتها الفنية والجمالية، ما جعلها تتناولها مجتمعت في قالب تاريخي تخييلي؛ بغية إحداث نوع من التطابق بين التاريخ والسرد.

استطاعت الرواية العربية بشكل عام والرواية التاريخية الجزائرية بشكل خاص أن تفرض وجودها خلا القرن الجاري، وأضحت ذلك الجنس الأدبي الأكثر ملائمة لحمل أسئلة الهوية التاريخية وإشكالاتها واستطاعت تمثيلها بالصورة الأنسب، استوعبت مرحلة جديدة واستطاعت أن تسرد التاريخ في قالب روائي يجمع بين صدق الأحداث ومستجداتها وجمالية السرد، التي لا تستوعبها الأجناس الأخرى. وهذا ما لمسناه في رواية واسيني الأعرج الذي استحضر مرحلة حرجة من مراحل تاريخ مقاومة الأمير وإسقاطها على الواقع الحضاري الذي تشهده الساحة العربية والعالمية، من خلال جدلية الانا والآخر أو حوار الشرق والغرب. باستحضار مثالٍ واقعي سجله التاريخ و بشهادة الآخر على إنسانية رجل الجزائر الأول الأمير عبد القادر، ومدى انفتاح رؤيته في بناء جزائر جديدة بعيداً عن التطرف والانغلاق.

تبقى هذه الأعمال الروائية بكل ما تحمله من رمزية في حياة الأمة الجزائرية، وما تحققه من تطابق وتقارب مع ما كتبه الأمير عن نفسه في مذكراته أو ما كتب عنه من قبل كتاب عرب وأجانب، وما يمكن عده اختلافًا

بحكم طبيعة هذه النصوص الروائية التي يحكمها التخييل والانزياح عن الوقائع. تتفق على كون شخصية الأمير إنسانياً وقيادياً انموذجاً لصناعة القائد.

قائمة المصادر والمراجع:

1. المصادر:

. عبد القادر قسيمة، ثائر من الجزائر، ط1، 1436هـ 2015م، دار النفائس لطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان.

. واسيني الأعرج، كتاب الأمير(مسالك ابواب الحديد)، ط2، 2008م، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان.

2. المراجع:

. أبو القاسم سعدالله، منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، ليبيا/تونس، ط2، 1988.

. بقبق الزهرة، الامير عبد القادر في الاسر1848 .1852، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، دط، 2018.

3. الدوريات:

. عبد الوهاب بوشليحة، الكولونيالية واستراتيجية التجاوز(تجربة واسيني الأعرج)، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، دورية أكاديمية متخصصة محكمة تعنى بالدراسات الإسلامية والإنسانية، رمضان 1429/ سبتمبر 2008، ع26، قسنطينة، الجزائر.

. فاطمة قسول، سلطة التاريخي ولعبة المتخيل في كتاب الأمير مسالك ابواب الحديد ، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، م3، ع6، الجزائر، سبتمبر2015.

. محمد فتحي، تجليات القيم الإنسانية لدى الأمير عبد القادر في رواية واسيني الأعرج كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، المجلد3.